عن السّيرة الذّاتيّة في الكتابة العربيّة

علي مصباح

«نحن لا نعرف أنفسنا، نحن الذين نبحث عن المعرفة، والواقع أنّنا لم نبحث قطّ عن ذاتنا، فكيف يتسنّى لنا أن نكتشف ذاتنا في يوم من الأيام؟»
– نيتشة –
«جينيالوجيا الأخلاق»

«كتلة مقهوريك ومنبوذيك ليست سوى مفهوم مجرّد. الأفراد وحدهم موجودون، إذا ما وجد أحد.»
– خورخي لويس بورخس –

السيرة الذّاتيّة جنس أدبي نادر داخل الكتابة العربيّة المعاصرة، إن لم نقل يكاد يكون منعدماً.

في كتابات القدامى يلاحظ القارىء انسراب الكثير من السيرة الذاتية داخل العديد من الآثار؛ في نصوص أدب الرّحلة، وفي كتابات المتصوّفة، وكتابات أبي حيّان التوحيدي، وفي «طوق الحمامة» لابن حزم... أمّا الشعر فكان في أغلبه، بما في ذلك المديح والهجاء، نوعاً من الإخبار عن التجربة الذاتيّة، حتّى أنّ الدارسين والنقّاد قد اعتمدوا في كثير من الأحيان النصوص الشعريّة وثيقة عن حياة الكاتب وعصره، واعتمدوا حياة الشاعر وسيلة لفهم تجربته الشعريّة. بل إنّهم قد بالغوا في ذلك إلى حدّ تأسيس الإعتقاد المبسّط الساذج بتطابق النصّ مع التجربة الذاتيّة جملة وتفصيلاً.

المهم هو أنّ نصوص القدامى لم تكن تتردّد في احتضان عناصر التجربة الشخصيّة، ولا تنزعج من ذلك بدعوى ضرورة الفصل بين الذات الكاتبة وموضوع الكتابة. كانت الذات لا تسعى إلى إقصاء نفسها من الأثر إلاّ في حالات محدّدة مرتبطة بنوع خاصّ كالنظريّة الفلسفيّة، وإن كان الغزالي هنا أيضاً قد خرق هذا المنوال في كتاب «المنقذ من الضلال» الذي يمكن أن يعتبر هو أيضاً سيرة ذاتيّة علميّة. إذ هو يؤسّس نوعاً من المعرفة القائمة على التجربة والإختبار الفرديّين، شأن المعرفة الصّوفيّة عامّة.

أمّا الكتابة العربيّة المعاصرة فتبدو عازفة، أو متجاهلة لهذا النوع من الكتابة التي محورها الأساسي هو التجربة الذاتيّة للكاتب في أبعادها المتعدّدة.

ما السبب في ذلك يا ترى؟

سؤال يعاودني الآن. وقد ظل يتردّد في الإلحاح عليّ منذ سنوات.

أذكر أنّني قرأت في سنّ مبكّرة كتاب «الأيّام» لطه حسين، وأعجبت به إعجاباً شديداً. ولأول مرّة شعرت بأنّ الكتابة يمكن أن تكون أيضاً نابعة من التجربة الخاصّة والمباشرة للأشخاص الحقيقيّين. شيء له علاقة مباشرة وحميمية بالشخص الذي يكتب. كان مدرّسونا آنذاك يلقّنوننا أنّ القيمة الأساسيّة للأدب تكمن أوّلاً وقبل كلّ شيء في قدرته على ارتياد العوالم الخياليّة التي تسمو على المسيرة الرّتيبة لحياتنا اليوميّة، مع إتقان استعمال الصّور الغريبة والألفاظ الرشيقة والعبارات المنمّقة المنتقاة. كان كلّ ذلك يثير إعجابنا، لكنّه كان يرفع بيننا وبين تلك النصوص شيئاً شبيهاً بجدار. وكان الكتّاب يبدون لنا (لي شخصيّاً على الأقلّ)، بموجب ذلك الحاجز، أشبه بأبطال الأساطير: شخصيّات خارقة للعادة، غريبة عن منزلتنا (البشريّة أكاد أقول).

أربكني الأمر في البداية، حتّى أنّني سألت أستاذ اللغة العربية آنذاك، إن كان طه حسين في ذلك الكتاب يروي فعلاً قصّة حياته الشخصيّة، فأجابني بأنّ ذلك النوع من الكتب يسمّى بالمذكّرات.

هناك كتّاب يكتبون عن أنفسهم إذاً؟ عن حياتهم بكلّ تلك الجزئيّات التي كنّا نظنّها أشياء تافهة لا تهمّ أحداً؟

كان الكتاب يشدّني إليه بشيء من السّحر الخفيّ الذي لا علاقة له بالبهرج اللفظي، ولا بالصّور الغريبة والأحداث الخارقة. أعجبني أن يحدّثني ذلك الكاتب الكبير الذي كنّا نكنّ له تقديراً هائلاً، عن حياته، عن خطواته الأولى وهو يتلمّس درباً في العتمة باتّجاه السّياج الذي لم يكن قد تجاوزه من قبلها قطّ، عن كبواته وعن بعض اللحظات المحرجة والمؤلمة التي كان يسبّبها له فقدان البصر.

لشدّ ما أعجبني أن يدخلني ذلك الصنم الهائل إلى عالمه الحميميّ، وأن يطلعني على

عذاباته ومعاناته لأتمثّله، لا فقط كرجل أدب محاط بهيبة لا حدود لها، بل كطفل معذّب. كإنسان.

ولقد تساءلت آنذاك كثيراً: لم يتحدّث طه حسين عن نفسه بصيغة الغائب؟ لمَ لا يستعمل صيغة المتكلّم فيقرّبنَي إليه أكثر، وأراه وجهاً لوجه من دون تلك الوساَطة لشخصيّة نكرة: «الطفل»؟

قرأت بعدها سيراً ذاتيّة كثيرة لعدد من الكتّاب الأجانب. «مذكّرات آن فرانك» كان على ما أظنّ أوّل ما قرأت من تلك الكتب، ثمّ اعترافات روسّو. بعدها جاء نيرودا (أعترف أنني عشت)... ثمّ هنري ميللر وجان جينيه، وكازنتزاكي، وويليام اس. بورّوز.....

أشعر دوماً بلذّة كبيرة في قراءة هذا الصنف الأدبي، وأحسّ أنّه يحتوي على دفق من الصدّق شبيه بطاقة من المحبّة تجعل أولئك الكتّاب أناساً مقرّبين لي ومحبّبين، وتجعلني أجهد نفسي في البحث عن موقع تلك القوّة التي تجعلهم يبوحون للقارىء بكلّ الأسرار التي يسعى النّاس عادة إلى حجبها وتخبئتها عن الآخرين.

كلّ قارىء صديق حميم بالنسبة لهؤلاء! وحياتهم التي كانوا يحرصون على أن يعيشوها ملء الرّئتين وبحريّة، تغدو أحياناً صداميّة ومشاغبة لنواميس وأعراف المواضعات الإجتماعيّة المتداولة، هي من ناحية ملك خاصّ لهم يحيطونه على الدّوام باليقظة تجاه السّلب والإبتزاز الذي تمارسه المؤسّسات، لكنّهم من ناحية أخرى لا يمنعونه عن الآخرين، ولا يضربون عليه أسيجة الرّقابة والتكتّم؟ ما هو سرّ هذه الجدليّة الغريبة يا ترى؟ أليس ذلك هو سرّ قوّتهم التي تجعلنا ننشدّ إلى كلّ كلمة ممّا يكتبون انشدادنا إلى جزئيات حلم جميل، أو إلى كلام نبوءة غامضة مشحونة ألغازاً؟ هل هم يمارسون على حياتهم الخاصّة عمليّة تأميم تسلبهم الحقّ في الإمتلاك الفردي لحميميّتهم؟ أم تراهم بالعكس من ذلك يمارسون على حياتنا نحن؛ على كلّ ممارساتنا السريّة وأفعالنا التي لا نقدر على إتيانها جهراً، ضرباً من الإتّهام الذي يفضح مراوغاتنا وعدم جرأتنا على إعطاء الحياة طابعها الإحتفاليّ الذي تستحقّ؟

تحيل هذه التساؤلات دوماً إلى سؤال آخر: ما الذي يجعل الكتّاب العرب يعزفون، أو ينشغلون عن كتابة سيرهم الذاتيّة؟

يعاودني هذا التساؤل دوماً، وبإلحاح أكثر في السنوات الأخيرة. وفي كلّ مرّة أحاول أن أجد تبريراً أو تبريرات لذلك كي أطردً عن ذهني بعض الأفكار التي تراودني، والتي ربّما رأيت فيها قسوة ما على الكتابة العربيّة عامّة، فأسعى دوماً إلى تفادي تعميقها وتطويرها.

وأنا أقرأ كتاب «زهرة الأنبياء» للكاتبة العراقيّة سالمة صالح عاودتني تلك التساؤلات

مجدّداً. وكان أن تزامنت قراءتي لهذا الكتاب، بمحض صدفة مع قراءتي لرواية «هلوسات ترشيش» للكاتب التونسي حسونة المصباحي، وفيها أيضاً جانب كبير من السيرة الذاتيّة، وكتاب «بدون استراحة» لباول بولز.

قرّرت أخيراً أن أغامر بالتطرّق إلى هذا الموضوع ومحاولة تقصّي بعض الأسباب التي تجعل الكتّاب العرب يعزفون عن هذا الجنس الأدبيّ الهامّ، أو لا يأتونه إلاّ مداورة ومخاتلة.

لكن ها أنّني أضبط نفسي وأنا أتردد، وأُراوغ الموضوع ولا أتجرّأ عليه!!

لكأنّ المسألة «تابو»! حتّى لكأنني أرى نفسي الآن أكتب كلاماً شبيهاً بالإعتذار لمجرّد مراودة هذا الموضوع، أو شيئاً مثل تبرير لموجب الكلام في هذا الموضوع.

إنّها فعلاً لمفارقة! بل إنّه أمر عميق الدّلالة. فهذا لا يعني سوى أنّ الموضوع على شيء من الخطورة يستوجب التردّد والحذر؛ بمعنى أنّ التطرّق إليه قد يؤدّي إلى ملامسة مسائل محرجة. وهذا يعني أنّني واقع تحت سلطة الحرج ذاتها التي تكبّل الكتابة العربيّة عامّة. وأراني أتساءل، أو لعلّني أشحذ جرأتي: أليس من حقّ المرء أن يتطرّق إلى ما يخالجه من مواضيع، حتّى وإن كانت محرجة؟ حتّى وإن اقتضى الأمر أن يخطىء؟

إذاً!

ما هي المعيقات التي تحول دون الكاتب العربيّ والتطرّق إلى ذاته وتعريتها، وإضاءة ما يقبع في العتمة من شخصيّته في علاقتها الصداميّة مع العالم المحيط؟

هل يخبّىء هؤلاء أشياء خطيرة لا يجرؤ المرء على التصريح بها دون أن يلحقه منها الأذى؟

أم ترى حياتهم خالية من كلّ أمر مهمّ؟ تافهة إلى حدّ أنّ لا شيء فيها يمكن أن يصلح غذاءً للأدب؟ أم أنّ المسألة تتعلّق بمفهوم محدّد لدينا للأدب ولعلاقة المعيش بالمكتوب، وعلاقة الكاتب بما يكتب؟.

|

هنالك طبعاً دائماً شيء من السيرة يخترق الكتابة ويتسلّل بحذر بين مفاصلها. وهناك روايات وقصص تكاد تكون في مجملها نوعاً من السيرة الذاتيّة المتخفّية وراء شخصيّات وأحداث قد تبدو لا علاقة لها بالكاتب. لكنّ السيرة الذاتيّة كجنس مستقلّ يصرّح بأنّه سيرة ولا يتّخذ أقنعة وشخصيّات منتحلة للمراوغة والتستّر، شيء يختلف عن الرّواية وحتّى عن اليوميّات والمذكّرات.

إنّ ميزة السيرة الذاتيّة وكلّ طاقاتها تنبع من ذلك التعبير الصّريح عن هويتها.

السيرة كجنس واضح الهويّة والمقاصد، تضع الكاتب وجهاً لوجه مع ذاته، دون

وسائط وذرائع، ليدخل معها في حوار صاخب، قبل أن يخرج ذلك الحوار مع الذّات إلى القارىء ليدخل بدوره في مجابهة مع منظومة القيم التي تحدّد رؤيته وسلوكه.

هنا يكمن الفرق بين السيرة الذّاتيّة والمذكّرات، ذلك أنّ هذه الأخيرة غالباً ما تكون تسجيليّة نقليّة، وغالباً ما يطغى عليها الحدث الخارجيّ، فتتحوّل إلى نوع من الوثيقة التّاريخيّة الإجتماعيّة والسياسيّة، في حين أنّ السّيرة الذاتيّة حفر في الذات وتقّصٍ لجراحاتها.

السيرة ليست توثيقاً كميّاً بقدر ما هي عمل انتقائيّ يلتقط اللحظات الأكثر إشعاعاً، أو الأكثر قتامة. الأكثر نتوءً وتوتّراً. اللحظات التي تعرب عن نفسها لحظات امتلاء بالحياة، ببهجتها، بمتناقضاتها وبصراعاتها. لحظات وقوف الذات في عراء المجابهة، في دفء الإمتلاء بالذات، في عاصفة اختبار الفرد لفرديّته وحريّته. لحظات ترتبك عندها القناعات والمسلّمات والقوانين العامّة، وتحتضن الذات فيها لهفتها الأبديّة على الإمتلاء بالمعنى الوجوديّ الوحيد الذي لا يتأسّس إلاّ في اختبارها الفرديّ للحياة.

هناك جهد مضاعف يجابه الكاتب وهو يقبل على كتابة سيرته الذاتيّة:

ـ جهد باتّجاه تملّك الأنا لذاتها والسيطرة عليها.

ـ جهد باتّجاه الخارج (وهو لاحق على الجهد الأوّل ونتيجة له)، لجعل الأنا تواجه العالم وتتعرّى أمامه دون مكابرة أو خوف أو مداراة لأيّ عرف من الأعراف.

إنّ استكمال السيادة على الذّات لا يعني بالضرورة أنّ الأنا قد صفّت حساباتها نهائيّاً مع ذاتها، وأنّها قد أنجزت تصالحها معها، بقدر ما هي خطوة حاسمة باتّجاه التّفاعل الواعي مع الذّات. تفاعل قد يكون صداميّاً، لكنّه متحرّر من حواجز الإغتراب والإنفصام اللذين يحوّلان الذّات إلى كيان منشطر يراوح بين لحظة داخليّة منقطعة عن العالم، ولحظة خارجيّة تتموضع فيها وتغدو رهينة للعالم. لأنّه لا يمكن للذّات أن تموضع نفسها إلاّ بالخروج عن ذاتها، أي بالإنضواء تحت سقف خارجيّ قد يكون الأخلاق، وقد يكون الدّين، وقد تكون الإيديولوجيا... أو كل ذلك معاً. وهذه طبعاً حالة مرَضيّة يتبادل بموجبها طرفان الأدوار، فيصبح الخارج داخلاً والدّاخل خارجاً. يعني ذلك أنّ العالم الخارجيّ يغدو الإطار المرجعيّ، والسياق المنظّم الذي يسلب الذّات من استقلاليتها ويصيّرها موضوعاً (ما هو موضوع أمام..) خاضعاً للمراقبة والتأطير والزّجر والإقصاء. فينشطر الكيان إلى كيانين:

ـ داخلٌ مفرغ من ذاتيّته، أي من طاقاته المتوقّزة النّازعة دوماً إلى التملّص والتنطّع والتوحّش ضمن الإختبار الفردي للحياة: داخلٌ مستوطَن ـ مستعمَر.

ـ خارجٌ مستبطَن طرد الذّات من مقرّها وجعلها تحتلّ موقع المنبوذ والمقصي.

لذلك لا يمكن أن يكتب السيرة الذاتيّة إلاّ من تمكّن من استعادة تملّكه لذاته. وهي عمليّة لا تتمّ في لحظة الكتابة بمعزل عن التجربة الحياتيّة التي تفضي إليها، بل هي صيرورة تشكّلت في مسيرة حياة كانت ممتلئة بهذا الإختبار الفردي والجريء للحياة ضمن علاقة صداميّة مع العالم؛ انفصاليّة واتّصاليّة في الآن ذاته، تحتضن العالم لترجّه وتخلخل ثوابته ومسلّماته. واعية بطابعها الصداميّ الإنشقاقي في غير انعزال، لأنّها تظلّ على الدّوام محتفية بالعالم كمشروع للبناء؛ كشيء قابل للتغيير والتثوير.

السيرة الذاتيّة كشف وتعرية ومواجهة للعالم بعري الذّات: اندافاعاتها، كبواتها، قلقها، أزماتها، ضعفها، وقوتها. جمع لشتات تلك اللحظات التي تبدو مجزّأة متناثرة، من أجل تحويلها إلى كلّ متعدّد الوجوه، لا يستقرّ إلاّ في حيرة ذلك التعدّد. كشف بأنّ كلّ شيء (الذات والعالم) مشروع منفتح على الدّوام على أطوار تشكّله اللامتناهية. لا شيءَ مكتملٌ، ولا شيءَ منته.

كاتب السيرًة الذّاتيّة يجمع في نثار الأحداث التي يستعيدها نسقاً حياتيّاً، ويعيد ترتيب سيرورة حياته في علاقاتها التفاعليّة مع العالم. نسق لحظات شفّافة هشّة منفتحة دوماً على تجاوز ذاتها، هشاشتها (لحظات الضّعف) هي اشتياقها إلى لحظة أخرى أرقى لا تُستدعى إلاّ صدامياً. هكذا تتحوّل لحظة الضعف إلى تهيئة للتجاوز، وإذا هي منبع قوّة الذات التي تهفو إلى تقويض أسس الثبات.

كاتب السيرة الذاتيّة لم يعد لديه إذاً ما يخجله، أو ما يخفيه في عمليّة التعرية، لأنّها كشف عن إمكانيات أخرى لترتيب القيم والنظم. كيفيّة أخرى للإمتلاء بالحياة.

لكنّ الكاتب العربي يبدو ميّالاً إلى التغطية والتستّر (طلباً للسّتر)، وإلى المكابرة وإخفاء الضّعف، أو كلّ ما يعدّه ضعفاً (أو ما قُدّم له، واستبطنه على أنّه ضعف) قد ينال من سمعته وينقص من قيمته؛ قيمته الإجتماعيّة طبعاً. لأنّه كائن اجتماعيّ وتكوينه جمعيّ، متعلّق بالكمال والإكتمال، مؤطّر بالأمثلة التي أنجزت كمالها في صورة ذهنيّة غدت تقليداً معرفيّاً، ثم تحوّلت إلى مؤسّسة تؤطّر وعيه بالعالم، وتؤسّس اغترابه: العالم من حوله سلطة مكتملة تهفو إلى الخلود، وهو جزء ملحَق وتافه، لا يتحقّق له وجود إلاّ بالإنخراط التصالحي الإنسجاميّ في هذا الكلّ.

يكاد المرء لا يستثني غير الكاتب المغربي محمّد شكري، وتوجّه بدأ يتدعّم لدى الكاتب التونسي حسونة المصباحي وبعض النصوص الجريئة لكاتبات نساء، من المشهد العام للكتابة العربيّة التي تبدو في مجملها مرتاحة لاستنساخ الأمثلة النصية (كتابة بالذاكرة النصيّة لا بالتجربة)، خاضعة للمعايير التقليديّة لتعامل الفرد مع ذاته ومع الحياة والمجتمع، كانعكاس لانحباس الذات داخل المنظومة الأخلاقية التقليديّة القائمة على:

ـ الفخر : أداة الدّفاع عن النفس واستجداء الإعتراف وتحصيل المكانة المرغوبة اجتماعيّاً.

ـ الهجاء : أداة زجر الشاذّ والمنحرف وإقصاء كلّ ما لا يخضع للقيم المتعارف على صلاحيّتها.

ـ المديح : استعطاف الرضى واستجداء المكافأة.

لذلك يبدي الكاتب العربي في الغالب ذعراً وهلعاً شديدين أمام النقد (الهجاء في المخيال الجمعي التقليدي)، وينبسط للمديح والإطراء ويستزيدهما، لأنّ الذات الفرديّة لدينا نحن العرب جميعاً هشّة مدجّنة بالقيم والمتعاليات. إنّها ذات ضعيفة ضعف قيمة الفرد في ثقافتنا المعاصرة، لا تستند إلى قيم ذاتيّة صلبة تقيها من هجوم الخارج، وتجعلها قادرة على التصدّي بقواها وثوابتها الداخليّة.

الذات الفرديّة في مجتمع قائم على القمع المركَّب (عائلي، أخلاقي، ديني، سياسي) ما تزال مغمورة تحت ركام من الفعاليّات السلطويّة، لذلك يظلّ الخارج هو مجال انتعاش كيانها المشروخ.

ستكون الكتابة إذاً ثوباً يغطّي عري الذّات. ثوب يتفنّن كل واحد في تزويقه وتحسين هيأته لأنّه الواجهة البرّاقة لذات غير متصالحة مع ذاتها. فلا تفلح هذه الكتابة في كسر طوق القيم التي تؤسّسها الرؤية الإجتماعيّة، وفي اقتحام مجال الدّاخل: مجال الرّغبة وافتتان الذات بعلاقتها الصداميّة مع نفسها وهي تتشكّل عبر حركتي الهدم والبناء ضمن عمل مراجعة دائم لا يهدأ.

|

سؤال : من أين يدخل الكاتب والفنّان إلى العالم؟

جوابان: ١ ـ من بوّابة المؤسّسات ـ الكبرى منها والصّغرى. هناك العائلة والمدرسة، والمحيط الإجتماعي الذي يحبّك ويحيطك بالتقدير والإعتراف، والوطن والدّين والأخلاق، والطبقة، والدولة، والفكرة الكبرى، والقضيّة، والتضحية، ونكران الذات (لا تنسى نكران الذات!).... بوّابات عديدة؛ ولا تضيّقوا ما وسّع الله لكم.

٢ ـ باب الإمتحان. الباب الضيّق الذي تحرسه زبانية المؤسّسات المذكورة في ما سبق، لا يتجاوز ذلك الحاجز إلاّ قلّة من المغامرين. هو الذي تعنيه مقولة «ما أكبر الكرب وما أضيق الطريق». لذلك سمّيناه باب الإمتحان... لكن ألا يمكن أن نعوّض عن عبارة الإمتحان بـ «الإختبار»؟ باب التجربة الذاتيّة إذاً! الإختبار الفرديّ. الإمكانيّة الوحيدة لاختبار الحياة.

ستختار الكتابة العربيّة المعاصرة الباب الأوّل الذي تدخل منه القطعان؛ كلّ قطيع

وراء لافتته أو راية عشيرته. لأنّ «الوعي» العربي جمعي قبل كلّ شيء، والوعي الجمعي مفتتن بالكليّات. الفرد العربي لم يفلح بعد في دخول العالم ومغازلة أشيائه جهراً. العالم بالنسبة لوعيه السقيم خطيئة، والعيش معصية. مراوغةً يأتي الفرد تناوله للأشياء؛ يسعى إلى إبداء تجاهلها، فيما هو يتلهّف عليها في سرّه. يتظاهر بإقصاء الجسد وتحقيره فيما هو مهووس به... لكن فقط كرغبة حرام، وأحياناً كواجهة برّانيّة. لننظر قليلاً إلى عشق الزّينة المبالغ فيه، وعبادة الحليّ، وذلكً التلهّف على اقتنائها وتكديسها على الجسد لدى المرأة العربيّة! ليست الحليّ وسيلة للتبجّح بالثروة، بقدر ما هي طريقة لمداورة الرّغبة في العيش مع الجسد، وبالجسد. مداورة تنقلب الزينة فيها على الجسد لتحجبه، فتلغيه معمّقة أكثر محنة غيابه واغترابه. يتحوّل الذهب إلى قناع، وإذا الجسد يعلن المعدن سيّد الحضور، والديكور بعناصره التكميليّة (Les accessoires) سابقاً على الشخصيّات في مسرحة المراوحة بين الغياب والتلهف على الحضور، بين التبجّح والإمّحاء.

الإديولوجيا، والأخلاق، والقضايا «الكبرى» هي حليّ الكاتب الذي لا يجرؤ على جعل ذاته شخصيّة تملأ بحضورها الركح مستقلّة بذاتها لا تستدعي عناصر الديكور إلاّ كعناصر إضافيّة متمّمة.

|

إنّ الإقبال على كتابة السيرة الذاتيّة، إذاً، خطوة هائلة يخطوها الكاتب باتجاه ذاته بهدف اكتشافها ومعرفتها أوّلاً، ثمّ تملّكها وتغذية وقودها: منبع الكتابة والعنصر الأوّل للعمل الإبداعي.

ليست كلّ «أنا» كاتبة واعية بذاتها وبنوعيّة حضورها في العالم. لأنّ الكتابة يمكن لها أيضاً أن تكون ضرباً من الهروب من الذات والإحتماء بالخارج، وسعياً إلى تغطية عريها إذا ما كان هاجسها استجداء الإعتراف وبلوغ المجد والشهرة، أو المناصب. صحيح أنّ كل عمل يعمله الإنسان يكون موجّهاً إن قليلاً أو كثيراً بالرغبة في الحصول على الإعتراف، غير أنّه عندما تتحوّل هذه الرغبة إلى هاجس أساس يطغى على الرغبة في التحرّر وممارسة الوجود على نحو مستقلّ ومبدع عبر طقس الكتابة، فإنّ الأنا الكاتبة ستعمل كلّ ما في وسعها لتفادي نار المواجهات، الدّاخليّة منها والخارجيّة. عندها تتحوّل الكتابة من رغبة في التحرّر إلى استلاب، لأنّ الذات وهي تتوهّم بلوغ تحقّقها عبر ما يمنحه لها الخارج من اعتراف ومكافأة وتكريس، تكون في الواقع قد ذهبت شوطاً في متاهة الإغتراب. وسيكون عليها تبعاً لذلك الإنقياد إلى قوانين النجاح التي تحدّد خارجاً عنها، ضمن مؤسّسات الأخلاق والدّين والإديولوجيا والسياسة. فلا بدّ لها إذاً من الحرص

كلّ الحرص على عدم الإخلال بشروط الإنضباط لمرجعيّات ذلك الخارج وعدم التجاوز، والتطاول على متعالياته.

ستكون الكتابة ضمن هذه الشروط عمليّة استنزاف لطاقات الذات (طاقات الإختبار الذاتي، والتحقّز والتنطّع)، وتواطؤاً مبيداً مع الخارج ضدّ التدخل.

الكاتب العربي يعيش داخل مجتمع ذي بنية قمعيّة بامتياز. هذه البنية تمارس على الأفراد قمعاً مركّباً متعدّد الأوجه تعدّد المؤسّسات التجميعيّة: العائلة، العشيرة، المؤسّسة المهنية، الأخلاق، الدّين، الدولة. وبالرّغم من بعض التغيّرات البنيويّة التي طرأت على انتظام النسيج الإجتماعي بحكم ظهور المدن الكبرى، وبروز بعض القطاعات الصناعيّة، وتغيّر العلاقات المهنيّة ضمن أنماط جديدة للإنتاج، وتفكّك الروابط القَبليّة والعشائريّة (وإن نسبيّاً في بعض الأقطار)، وبروز الدّولة كمعطى سياسي وإداري ذي حضور جديد نوعيّاً، فإنّ منظومات العائلة والأخلاق والدّين لم تفقد سلطتها التقليديّة، ولا شيئاً من قدرتها على محاصرة الأفراد ومراقبتهم ومحاسبتهم وإخضاعهم للأنماط التي تحدّدها لسلوكيّاتهم ونمط تفكيرهم.

إنّ هذه المؤسّسات المتعدّدة والمتجاورة، في نوع من المفارقة التاريخيّة أحياناً، لم تدخل في تناقضات حاسمة كان من الممكن أن تمنح الفرد هامشاً للتملّص من سطوتها، بل إنّها، وضمن هويّة اجتماعيّة غائمة لم تتحدّد ملامحها بوضوح بعد (فلا هي رأسماليّة بورجوازيّة، ولا هي إقطاعيّة، ولا هي ليبراليّة، ولا هي تسييريّة كليانيّة، ولا هي تقليديّة، ولا هي حديثة) قد أسّست ضمن هذا التجاور المسخ تحالفاً مشبوهاً وغير طبيعيّ، غايته إحكام المحاصرة على الفرد والفئات وضمان الثبات والرّكود. بل إنّ سلطة المراقبة قد تشدّدت وتوطّدت أكثر بحكم تنامي قدرات الدّولة على التدخّل السريع والمنظّم والدّقيق عبر أجهزتها الإدارية المستحدثة والإعلامية والتعليميّة التي اقتحمت على الأفراد حميميتهم وصارت حاضرة حضوراً مكثّفاً لم تكن تعرفه في عصور ماضية.

إنّ تضافر مساعي هذه المؤسّسات المتعدّدة من أجل المراقبة، قد أعطاها قدرة فائقة على محاصرة ونبذ الناشز والمختلف، وتحييد كلّ الحالات التي تتجرّأ على السباحة ضدّ التيّار، أو على إظهار التفرّد الذي يعني لدى المخيال الجمعي العربيّ فعل انشقاق وعصيان وإتيان للبدع.

إنّ المجتمع العربي من المجتمعات البشريّة النّادرة التي تتجاور فيها مؤسسات المراقبة التقليديّة منها والحديثة مع مؤسّسة العقاب الرسميّة لتمارس كلّها مجتمعة سلطة قهريّة لا متناهية على الفرد.

لكن هل يعني ذلك أن مساعي التطويع والمَجْمعة قد توصّلت إلى القضاء النهائيّ على

النزوعات العميقة لممارسة التفرّد والتنطّع على نظم المراقبة والتأطير الصّارمة؟

يبدو لي، وهذا ما تثبته الحياة، أن لا شيء يستطيع – ولا استطاع في الماضي – أن ينجح في تدجين الفرد تدجيناً تامّاً، وفي قتل الفرديّة قتلاً نهائياً. النزوع إلى الفرديّة معطى عميق في الإنسان، إذ ما من أحد يستطيع أن يتماهى تماهياً كليّاً مع المجموعة بحيث يفقد ذاتيّته تماماً، وذلك حتّى في أشدّ لحظات تماهي الأفراد مع أيّ مثال إديولوجيّ أو عقائديّ. يبقى دوماً مجال ما يُفسحه الفرد لذاته ويصونه. مجال يسمح بممارسة نزوة ما لا تستجيب بالضرورة إلى رغائب الجماعة، أو بتلبية رغبة تستنكرها المؤسّسة وتستقبحها.

لكن كيف يعيش الفرد تلك الفسحة الصغيرة من الحريّة، وكيف يمارس حقّه في ارتيادها. كيف يلبّي نداء الرّغبات المقموعة والممنوعة؟ كيف يأتي فرديّته؟ ذلك هو المهمّ.

الجواب تمدّنا به المعاينة، حتّى غير العميقة للحياة اليوميّة ولسلوكات الأفراد داخل مجتمعاتنا. والأمر لا يتطلّب جهداً ذهنيّاً خارقاً على أيّة حال.

إن الإنسان العربي يعيش فرديّته مخاتلة لا مجاهرة («وإذا ابتُليتم فاستتروا»). يمارسها سرقة لا انتزاعاً، ويظلّ يعيش ممارستها كخطيئة لا كحقّ طبيعيّ. ومردّ ذلك التربية السلطويّة الزّجريّة التي يتلقّاها الفرد في محيط مسيّج بالممنوعات والمحرّمات، وهي تربية لا تنمّي الإستعداد للمجابهة والمواجهة بقدر ما تشجَع على المراوغة والتحايل والكذب. لأنّ فرداً ينشأ داخل هذا الحصار المشدّد المتشدّد، سيتعلم منذ الصغر التفنّن في طرق المراوغة والمخاتلة ومحاولات بلوغ إرضاء الرغبات سرّاً، في الوقت الذي يسعى فيه إلى الظهور بمظهر النموذج المنضبط لقواعد السلوك المرضيّة التي توفّر عليه العقاب وتجلب له المكافأة.

سيمارس الفرد الذي ينمو داخل هذا النظام الصّارم رغباته كممارسته للعادة السريّة، وسيعيش ذلك كمغامرة طائشة شاذّة، أو كمعصية لا بدّ لها أن تبقى محاطة بالتستّر حفاظاً على السمعة والمركز، وأحياناً فقط على لقمة العيش، أو على الحياة.

|

لدى الإغريق القدامى كان المسرح يلعب دوراً روحانياً مهمّاً عبر وظيفة «الكاثارسيس» (التطهير) التي تضع الفرد (المتفرّج) وجهاً لوجه مع ذاته. كانت خشبة المسرح ممراً نحو الذّات لتقصّي أعماقها والنفاذ إلى ما تحجبه ظلال الوعي في خفاياها. لم يكن المسرح فرجة بقدر ما كان خلوة مع الذات، ضرباً من العلاج النفسي الذي يعطي المتفرّج فرصة للدخول في مواجهة مع نفسه، فيتحوّل من متفرج إلى محلّل نفساني يراقب عوالمه الداخليّة ويتوغّل في أعماق نزواته ورغباته ويدخل في مصادمة علاجية معها (أو ما

يسمّى بلغة العلاج النفسي بـ «علاج الصّدمة») كخطوة نحو إنجاز التصالح مع الذات.

وفي المسيحيّة الكاثوليكيّة يلعب طقس الإعتراف دور المعدّل، أو عامل تصالح بين صرامة القواعد السلوكيّة والنزوعات الفرديّة لانتهاكها. صحيح أنّ النيّة الرئيسيّة التي أوجدت هذا الطقس هي محاولة محاصرة الأفعال الفرديّة وتأطير «الذّنب». وصحيح أيضاً أنّ المسألة غالباً ما تتحوّل إلى طقس رتيب يؤدّى بصفة آليّة (شأن كلّ الطقوس)، لكنّها تظلّ رغم ذلك تمنح الفرد فرصة للإختلاء بنفسه ليدخل، في لحظة صفاء، في مواجهة مع أفعاله ومحاورة مباشرة مع ذاته. بل إنّه وحتّى في حالة العزوف (الواعي أحياناً) عن هذا الطقس، سيظلّ في لا وعي الفرد شيء ما يقلقه مثل شعور بالذنب أو بنقص ما يبقى صاحبه دوماً يترقّب إفراغ شحنة التوتّر التي يحدثها في ضميره.

لكن المجتمع العربي الإسلامي لا يقرّ بمبدأ الإعتراف كقاعدة سلوكيّة أساسيّة في تعامل الفرد مع ذاته ومع الآخرين. صحيح أنّ «الإعتراف بالذّنب فضيلة»، لكنّه لم يرتفع إلى مستوى الواجب المقدّس. كان الإيمان في بدايته موقفاً فرديّاً يتأسّس ضمن مواجهة واعية تخوضها الذات الفرديّة مع ضميرها وقناعاتها السابقة، وتصفية حسابات مع نزوعاتها وميولها، وتبنٍّ واعٍ لمسلكيّة جديدة يكون الفرد (المؤمن) بموجبها مسؤولاً عن أفعاله وسلوكه. هنا كانتً محاسبة الذات ضمن عمليّتي الإستغفار والتكفير، ثمّ التوبة، تمثّل خطوة هامّة في طريق التفاعل الواعي مع الذات والتصالح معها. كان ذلك قبل تقنين المسلكيّة العامّة وتأطيرها داخل قانون العقاب وتطبيق الحدود. أي قبل أن تتحوّل التربية الذاتيّة إلى منظومة قانونيّة عقابيّة تسهر على تنفيذها سلطة اجتماعيّة وسياسيّة متجسّدة خارج الفرد، بل فوقه. منذئذ سيغدو العقاب السلطة التربويّة؛ الزجريّة والتأطيريّة الأولى في التنظيم الإجتماعي العربي الإسلامي. وإذا التوبة لا تلغي العقاب، لأنّها عادة ما لا تأتي إلاّ بعده. وبالتالي سيكون الإعتراف والنقد الذاتي مسألتين غريبتين عن الإنسان العربي الإسلامي بعد عمليّة التأسيس (بمعنى التنظيم المؤسّساتي) التي أجريت على المراقبة والمحاسبة.

(لكن بالرّغم من ذلك كلّه فلقد ظلّ الفرد في ما مضى يحتفظ له دوماً بفسحة أكبر من التي يمتلكها الفرد العربي المعاصر. كان هنالك مجال أوسع للتسامح، وكان الكاتب والشاعر يتمتّع بحريّة أكبر في التعامل لا مع ذاته فقط، بل في مجال التعبير عن رغباته الخاصة ونزواته دون حرج، والتطرّق في كتاباته إلى شتّى الجزئيّات المرتبطة بالرغبات الفرديّة لعامّة النّاس وخاصّتها: اللّذة، الجنس، اللهو، العبث، المجون، الحبّ... وهي مواضيع قد غادرت مجال الكتابة منذ بداية الإنحطاط، ولم تعد إليها إلى اليوم، حتّى غدت من المحظورات تقريباً في الأدب العربي المعاصر!!).

في السيرة الذاتيّة يدخل عامل الإعتراف كعنصر من ضمن عناصر أخرى عديدة: إنّها كشف عن مجموع أفعال وسلوكات وأفكار وتجارب ليست كلّها بالضرورة «مآثم» و«ذنوباً». وبما أنّ الحياة تمنحنا فرصاً عديدة لإتيان الأخطاء، وتمنحنا فرصاً أخرى لعدم الإنضباط إلى قوانين الزجر والتأطير، وأخرى لممارسة رغائبنا والتملّص مما يكبّل أو يعيق تلك الممارسة. وبما أنّنا نصطدم بحواجز وعوائق ومصاعب تجعلنا لا نستطيع أن نؤدي في كل يوم أدواراً بطوليّة، بل إنّنا نضعف وننهزم ونتراجع ونخون ونطمع، خاضعين في ذلك كلّه إلى الآليات المعقّدة للحياة وإلى شرطنا الإنساني، وإلى التفاعل الحيّ والمتنوّع والثري مع الحياة. وفي كلمة، بما أنّنا نحيا على هذه الأرض المشعّة بالخير والشرّ والخطايا والأعمال الجليلة كبشر، لا كملائكة أو كآلهة معلّقة في السماء، فإنّ مسيرتنا هذه ستكون بالتأكيد حافلة بشتّى أنواع التناقضات المتنوّعة والثريّة. غير أنّ مسألة احتضان هذه التجربة في تنوّعها وتعدّد أوجهها لن يكون عملاً سهلاً بالنسبة لمن لا يمتلك رؤية تمجّد الحياة وتحتفي بها في تنوّعها وانفتاحها على كلّ أبعادها. إنّ موقف المسؤوليّة الواعية تجاه التجربة الشخصيّة للحياة مسألة رؤية للعالم ولعلاقة الكاتب بالحياة وبذاته: علاقة صدق تجعل الإنسان قادراً على احتضان الحياة والذات في أبعادهما المتعدّدة، احتضاناً مسؤولاً لا يقدر عليه من لم يكن قد تملّك ذاته تملّكاً يجعله قادراً على مواجهة العالم بعري الذات؛ ببهائها.

فهل يمكن للفرد الذي لا يوجد إلاّ كخطيئة داخل المجتمع العربي أن يكون قادراً على مواجهة العالم بعريه الذي هو عاره في المنظور الجمعي؟

وهل سيشدّ الكتّاب عن النّمط السلوكي السائد في مجتمعهم ليكونوا على استعداد لجعل الذات قادرة على الخروج إلى العالم ببهاء عريها ومواجهته بتجربتها المتفرّدة؟

ذلك ما أشكّ فيه بشدّة. وإلاّ لمَ لا يفتحون أمامنا تلك الدهاليز المقفلة المعتّمة التي يتكتّمون عليها، ويحرصون علىَ إحاطتها بالصّمت أو بدويّ البطولات الذي يغطّي على الهرج الدّاخلي للذات ويقنّع فوضاها؟

قد يعارض البعض هذا المطلب بدعوى أنّ حياة الكاتب الشخصية وعذاباته وآلامه وأشياءه الحميميّة ليست ملكاً للعموم، وهو بالتالي ليس مطالباً بعرضها على العامّ والخاصّ. عندها سنتساءل إذاً عن مفهوم الكتابة وعن علاقة الذاتي والمعاش بالمكتوب. وعمّا يريد الكتّاب من وراء فعل الكتابة، وعمّا ننتظره نحن منهم.

هل يريد هؤلاء أن نعجب بهم كأبطال (لأنّهم فرسان القبيلة = الأمّة) أو كآلهة صغيرة، أو كصورة عن طهارة الملائكة؟

أم تراهم يعتبرون الكتابة درس أخلاق يلقى على الآخرين؟ وإن هم أرادوها كذلك، فما الذي يحدّد القيم الأخلاقية وصلاحيتها؟ وما هي المعايير التي على أساسها يُصنّف القبيح كقبيح، والجميل كجميل، والضعف كضعف، والقوّة كقوّة، والصالح كصالح، والفاسد كفاسد؟

أليست الكتابة، والكتابة وحدها هي التي تقدر على التقبيح والتجميل بما هي اشتياق إلى الجميل المطلق الذي لا يمكن أن يتحقّق إلاّ كوعد يوميء من داخل جسد الأثر الفني؟

أم أنّ الكتابة أيضاً بحاجة إلى أطر مرجعيّة خارجيّة تستمدّ منها قيمها، تشرّع لها ما ينبغي أن يُكتب وتحدّد لها ما لا يُكتب؟.

|

نحن أمّة لها في مجال الأدب تاريخ عريق حافل. لكن يبدو أنّ هذا التاريخ وهذا الميراث هو بالضبط ما يشكّل عبئاً يُثقل كاهل المبدعين ويعيق حركتهم، لأنّنا لم نصفّ حساباتنا معه ولم نتملّكه ضمن قراءة حديثة معاصرة. إنّنا نستبطن قيمه الجماليّة والأخلاقيّة وقواعده وأشكاله التعبيريّة ونعيش على إيقاعه لكنّنا لا نمتلك روحه.

في شخصيّة الكاتب العربي – هناك بعيداً في أقاصي الذات التي لا يرتادها... إلاّ قلّة – تتراكم ترسّبات القيم الجاهليّة والقيم الردعيّة الدينيّة والرؤية النفعيّة الإجتماعيّة، التي رسّخها المنظّرون والفقهاء والنقّاد القدامى وهم يقاربون الشعر ويصنّفونه فيختزلونه في غرضي المدح والهجاء، ووظيفتي الحثّ على الفضيلة والنهي عن الرذيلة. وعلى أساس هذا المزيج تتكوّن شخصيّته المتردّدة، المراوغة، الحاسوب التي تحسب لكلّ خطوة ألف حساب. اجتماعيّة حدّ الإمحاء وتصالحيّة حدّ التنكّر لذاتها.

ليس من الصّعب إذاً استدراج الكاتب العربي إلى وهم الدّور التوعويّ والتربويّ، إذ في لا شعوره يشتغل على الدوام الميل إلى آداء الوظيفة النفعيّة التقليديّة القائمة على خلفيّة الأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر. هذه الوظيفيّة التي زادتها الأوهام الأديولوجيّة المعاصرة ترسّخاً في ذهن المثقّفين والكتّاب حتّى تحوّلت إلى بديهيّة جديدة ما زالت تعمّق اغتراب الكتابة واستلاب الذات الكاتبة.

يبدو أنّ الأديولوجيات الحديثة قد نجحت أكثر من محاولات الفقهاء والمنظّرين القدامى في استدراج الكتّاب إلى خدعاتها وأضاليلها، فاستحوذت النفعيّة كليّاً تقريباً على مجالات الإبداع، وأفرغتها من طاقات التوثّب الذاتيّة التي كانت وقود الرّوح المبدع لدى القدامى، والتي ظلّت تجعلهم يصمدون أمام محاولات الإحتواء، بل ولا يتردّدون في السخرية منها وتهزيئها.

لا أظنّ أنّ بشّار بن برد وأبا نوّاس والمعرّي وعمر بن أبي ربيعة وابن الرّومي والجاحظ

والهمذاني والحريري كانوا ليتركوا لنا تلك الأعمال الإبداعيّة الرّاقية، لو أنّهم انضبطوا لهذه المسطرة الوظيفيّة وقيمها. وهؤلاء قلّة للأسف داخل الحشد الهائل من الكتّاب والشعراء الذين عرفتهم الحضارة العربيّة منذ ذلك الزّمن. بل إنّ الكتابة المعاصرة تفتقر إلى تلك الرّوح التي كانت تغذّي الطاقة الصداميّة لكتابات أبي نوّاس وبشّار والمعرّي. ولعلّ استفاقة الذعر المربكة التي أحدثها الإنفجار الحضاري الأوروبي في وجه الكيان العربي المستسلم للركود هي التي دفعت بالكتابة العربيّة، وهي تنهض لجمع شتات كيانها المنخرم، تنضوي تحت لواء الفعاليات الأديولوجيّة والسياسيّة وتنسى ذاتها، بل وتتنصّل من ذاتها، فيستحوذ عليها العالم عوض أن تكون هي محتضن العالم والعصر وروحه.

إنّ كلّ من يؤمن بأسبقيّة الأخلاق والتوازن الإجتماعي على الحريّة، وبأولويّة المجد على الوجود، لن يمكن له إلاّ أن يرهن الوجود والحريّة من أجل المجد والأخلاق وكلّ الأوهام الأديولوجيّة، ويأسر الذات داخل منظومة الفعاليات الخارجيّة والمتعاليات.

الكتابة الأصيلة هي مجال انتهاك الأسيجة المضروبة على الذات الفرديّة، والسيرة الذاتيّة هي أرقى تجلّيات هذه الرغبة المعلنة في المواجهة. فكاتب السيرة الذاتيّة لا يعرّي ذاته أمام جمع من الشّوافيّين الفضوليّين، بقدر ما يلوّح بفرديته في بهاء تألّقها في وجه قوانين الزّجر والردع وإبادة الذات الفرديّة، وينتهك قوانينه المجمّعة التي تنفر من ثراء التفرّد والتنوّع ويفزعها خروج الذاتات المتفرّدة عن / على أعراف المنظومات التي تدّعي لنفسها امتلاك شرعيّة ميتافيزيقيّة للمراقبة والتأطير والإقصاء.

فماذا كان لهنري ميللر أو جان جينيه مثلاً أن يكتبا لو أنّهما أقصيا كلّ ما يمكن أن ينقّر الضمير الجمعي في تجربتهما الحياتيّة، لو كان همّهما أن لا يظهرا بما يمكن أن يجلب لهما العار والفضيحة؟

|

السيرة الذاتيّة لا تفضح الكاتب بقدر ما تفضح العالم المحيط ونظمه الإعتباطيّة. وهي لا تكشف عن عري الكاتب، بقدر ما تلج إلى دهاليز ذات القارىء.

إنّ الكاتب وهو يتجوّل داخل سراديب ذاته وينيرها، يجعل القارىء يرافقه، لكن داخل سراديب ذاته الخاصّة، ليكتشف تحت ضوء صدق الكاتب، كذبه هو وتواطؤه وغيابه. إنّه بمعنى ما دور تربويّ معاكس. تربية مضادّة، بموجبها لا يسعى الكاتب إلى بناء النظم الأخلاقيّة وأهرام مجد موهوم يتربّع فوقها مرشداً ومعلّماً، بل يعمل على نسف كلّ أوهام الفضيلة الزّائفة ضمن ما يسمّيه الكاتب الإسباني خوان غويتسولو بـ: «عمل تصفية للكفاءة المعنويّة» يجريه الكاتب على نفسه عَبر قول «ما لا يُقال»، بهدف «الإنتهاء

إلى فقدان الإعتبار في أعين مثقفي الإنسيّة الكلاسيكيّة».

ليست تربية تأطيريّة إذاً هدفها صنع المواطنين الصالحين، بل تربية إنسيّة غايتها تمجيد الحريّة والإحتفاء بالإنسان في أبعاده المتعدّدة.

لذلك نحن نقرأ، لا مجاملة، ولا بحكم قانون قهريّ يرغمنا على ذلك، بل لأنّنا نجد لذّة في استعادة اليقظة على ذواتنا وعوالمها الداخليّة المعتّمة. ولذلك أيضاً نشعر بالإستياء عندما يتّضح لنا أنّ الكتّاب يغالطوننا ويشوّشون علينا طرق العبور إلى ذواتنا.

ليكتب الكتّاب والشعراء ما يريدون. وليكذبوا إن كانوا يجدون في ذلك لذّة أو تسلية أو أيّ نوع من العزاء. لا أحد يستطيع أن يملي عليهم طريقة أو نهجاً أو مواضيع للكتابة. ذاك هو حقّهم المقدّس الوحيد على العالم. وسيبقى لنا كقرّاء الحقّ في الإقبال أو عدم الإقبال على ما يكتبون.

لكن ليكفّوا عن التوهّم وإيهام العالم بأنّهم مبشّرون ومنقذون، وحَمَلَة رسالة إنقاذ للعالم، إذ لا أظن أنّ العالم كان أسوأ حالاً وأكثر شقاءً قبل أن يدخل على نظامه ذلك التشويش العارم الذي أبدعه أصحاب السيف وأصحاب القلم متّحدين.

الكاتب ليس منقذاً كونيّاً، ولا حتّى محليّاً. هذا وهم آخر ومغالطة خطيرة لا بدّ أن نتخلّص منهما. إنّما هو شاهد على قلق الإنسان. وهو عندما ينهض للتعبير عن هذا القلق يستنهض في المقام الأوّل قدرات الممكن والمحتمل بهدف تسفيه دعاوي المتأسّس والمنجز الذي يسعى إلى إيهامنا بأنّه صفوة الجواهر وماهية الخلود. لذلك هو لا ينخرط إلاّ في مشاريع تصفية الأضاليل. فكيف يمكن له إذاً أن يكون مرشداً اجتماعياً، أو معلّماً، أو مبشّراً؟

|

إنّنا ننتمي إلى حضارة تعجّ بالقداسات المنتحلة والمتعاليات الغاشمة والأئمّة المعصومين والقيادات الملهَمة والزعماء التاريخيّين. لذلك صرنا نحنّ إلى أشياء لها طعم الأرض، وأحداث ليست من فصيلة الخوارق والمعجزات، وشخصيّات بلا كرامات، أشخاص يمكن أن نحبّهم لأنّهم من منزلتنا البشريّة.

نحنّ إلى شيء أرضيّ.

حتّى القداسة قد آن لها أن تطلع من صلب الأرض، لأنّ كلّ القداسات المتعالية قد بهتت، وصارت بطعم الرّماد.

فليكفّ الكاتب إذاً عن الإعتقاد بأنّه صنم أو إله أو قدوة ومثال. إنّنا نريده إنساناً، لا غير. ولأجل ذلك وبسبب صدق حضوره كإنسان يمكن له أن يكتسب هو ونصّه مصداقيّة. أمّا إذا ما كان يطمح إلى التحوّل إلى صورة للكمال الإلهي، ويصرّ على أن يجد مصدّقين

لدعواه هذه، فليذهب إذاً ليردّد تعاويذه على الملائكة في مكان آخر غير هذه الأرض التي تحترق بالحياة ولا حاجة لها بمن يتنكّر لنبضها.

في حفل الحياة البهيج، وبعيداً عن أضاليل المتعاليات سنظلّ نردّد أغنية الكائنات كلّها: «إنّنا نمشي فوق هذه الأرض؛ إنّنا نمشي فوق هذه الأرض المشعّة!»